بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الرابع

٥/ ٤/ ١٤٤٠

فَصْلٌ

وأمّا الهجرة إلى الرسولِ ﷺ فمَعْلَمٌ لم يبق منه سوىٰ رَسْمه، ومنهجٌ لم تترك منه بُنيّاتُ الطريقِ سوىٰ اسمه، ومَحَجَّةٌ سَفَتْ عليها السَّوافي فطَمَسَتْ رسومَها، وأغارت عليها الأعادي فغَوَّرت مناهلَها وعيونَها، فسالِكُها غريبٌ بين العباد، فريدٌ بين كل حيّ وناد، بعيدٌ علىٰ قرب المكان، وحيدٌ علىٰ كثرةِ الجيران، مستوحشٌ مما به يستأنسون، مستأنس مما به يستوحشون، مقيمٌ إذا ظَعَنُوا، ظاعِـنٌ إذا قَطَنُوا، منفردٌ في طريقِ طلبه، لا يَقَرُّ قرارُه حتىٰ يظفرَ بأَربِه، فهو الكائنُ معهم بجسده، البائنُ منهم بِمَقْصَدِه.

نامت في طلبِ الهدىٰ أَعينُهم وما ليلُ مَطِيِّه بنائم، وقعدوا عن الهجرةِ النبويةِ وهو في طلبها مُشَمِّرٌ قائم، يعيبونَهُ بمخالفةِ آرائِهم، ويُزْرُونَ عليه إزراءً علىٰ جَهالاتهم وأهوائهم، قد رجَموا فيه الظُّنون، وأذْكَوا عليه العيون، وتربصوا به ريب المنون ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ۝٥٢﴾ [التوبة]، ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١١٢﴾ [الأنبياء].

نَحْـــنُ وإيَّـــاكُم نمـــوتُ ولا أفلـحَ عنـد الحسـابِ مَـن نَـدِما

والمقصودُ أنَّ هذهِ الهجرة النبويّة شأنُها شديد، وطريقُها علىٰ غيرِ المشتاقِ وعيرٌ بعيد.

بعيـدٌ علـىٰ كسـلانَ أو ذي ملالـةٍ وأمـا علـىٰ المشـتاقِ فهـو قريـبُ

ولعمرُ اللهِ ما هي إلا نورٌ يَتَلَألأُ، ولكن أنتَ ظلامُه، وبدرٌ أضاءَ مَشارِقَ الأرضِ ومغارِبـَها، ولكن أنت غيمُهُ وَقَـتامُه، ومنهلٌ عذبٌ صافٍ ولكن أنت كَدَرُه، ومبتدأ له خبرٌ عظيمٌ، ولكن ليس عندك خبره.

فاسمعِ الآن شأنَ هذه الهجرةِ والدلالةِ عليها، وحاسِب نَفْسَكَ بينَكَ وبينَ الله هل أنت من المهاجرين لها أو المهاجرين إليها؟

الحمد لله رب العالمين، وأشهدُ ألا إله إلا الله وحده لا شريكَ له وأشهدُ أنّ محمدًا عبده ورسوله صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد.. فهذا الفصل فصلٌ عظيم في تعظيمِ السُّنة، والحثِّ علىٰ الاتباع والاهتداء بهدي الرسولِ الكريم عليه الصلاة والسلام، والسيرِ علىٰ منهاجِهِ القويم، وأنَّ هذا السيرَ وَفق السُّنة والاتباعَ لهديهِ عليه الصلاةُ والسلامُ هو نجاةُ المَرء، فإنّ مَثَلَ السُّنَّة في تحقُّقِ النجاة بها كسفينةِ نوح، من رَكِبَها نَجىٰ ومن تركها هلك،

فالسُنَّة برُّ الأمانِ، وسبيلُ النجاة، وطريق الفوز برضىٰ الرحمن ﷻ.

وقد عقدَ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الفصل وهو من أطولِ فصولِ هذه الرسالة وأوسعِها، حيث ساق فيه أدلةً كثيرة من كتابِ الله عَزَّوَجَلَّ، شارحًا لها مبينًا مضامينَها رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، كلُّها في هذا الباب: باب تعظيمِ السنّة وتَحكيمِها، وأن يكونَ المرء معظِّمًا لها ومُتبعا لهدي الرسولِ الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، وسائرًا علىٰ مِنهاجه القويم.

وهذا الاتباع هو الهِجرة إلىٰ الرسول، قد عرفنا فيما بيَّن رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ أنّ الهجرةَ نوعان:

هجرةٌ إلىٰ الله بالإخلاص والعبودية.

وهِجرةٌ إلىٰ الرسولِ عليه الصلاة والسلام بالتأسِّي والمُتابعة.

وهذه الهجرة الناسُ فيها علىٰ قِسمين: قسمٌ مهاجِر، وقسمٌ هاجِر، كما أوضح ذلك ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ.

منهم من هو مهاجرٌ إلىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام وإلىٰ سنّتِهِ، متأسِّيًا مُعظِّمًا مقدمًا لها علىٰ الآراء والعقول والأذواق والمواجيد وغيرِ ذلك.

ومن الناس من هو هاجرٌ للسنّة، مُعْرِضٌ عَنها، مُحَكِّمٌ غيرها؛ بل ومقدِمٌ غيرها عليها في تحكيمِه، ولا نَجاةَ للعبد إلا بتحقيقِ هذه الهِجرة العظيمة إلىٰ الرسولِ عليه الصلاةُ والسلام باتباعه، ولُـزوم هَدْيه، والاقتداء بسنَّته صلواتُ الله وسلامه وبركاته عليه.

وذكر مقدمةً رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ لهذا الفصل أراد منها أن ينهض بهمةِ المؤتسي بالرسول عليه الصلاة والسلام، وألا يستوحش مع قلة السالكين أو نُدرتهم، فإنّ المعتبَر في هذا الأَمر ما تتحقَّقُ به نجاةُ العبد وسلامتُه يوم يلقىٰ الله ﷻ، فعليه ألا يستوحش وإن قلّ السالك، وعليه أيضا ألا يغتر بالطُّرق الأخرىٰ وإن كَثُرَ السالك، فإنّ المُعْتبَر في الأعمال وقَبولِها إنما هو موافقة الهدي، هدي الرسول عليه الصلاة والسلام، وما كان علىٰ خلاف هديه مردودٌ علىٰ صاحبه وإن كَثُرَ العاملون به، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**من عَمِلَ عَملًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنا فَهُوَ رَدّ**» [صحيح مسلم].

وكان يقول في خُطبَتِهِ: «**أمّا بعد، فإن أَصْدَقَ الحَديثِ كتاب الله، وخَيْرَ الهُدىٰ هُدىٰ مُحمدٍ ﷺ وشرُّ الأمورِ مُحْدَثاتُها**» [صحيح مسلم].

قال في حديث العِرباض رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إنه من يعش منكم بعدي فسيرىٰ اختلافا كثيرا**» لم يقل قليلا، «**فعليكم بسنتي**» هذا الذي فيه النجاة «**وسنةِ الخلفاء المهديينَ الراشدين، تمسكوا بها وعَضّوا عليها بالنواجذ، وإياكُم ومُحدَثاتُ الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**» [هذه رواية صحيح أبي داود، وهناك روايات

أخرىٰ تختلف اختلافات يسيرة في صحيح الجامع، وصحيح ابن ماجه، والطحاوية للألباني رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ]..

فحدُّ هذه الهجرةِ سفرُ الفِكْرِ في كُلِّ مسألةٍ من مسائل الإيمان، ونازلةٍ من نوازلِ القلوب، وحادثةٍ من حوادثِ الأحكام، إلىٰ معدِنِ الهُدىٰ ومنبع النور المُتلقىٰ من فم الصادق المصدوق، الذي لا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ، فكل مسألةٍ طلَعت عليها شمس رسالتِهِ وإلا فاقذف بها في بحارِ الظّلمات، وكلُّ شاهدٍ عدَّله هذا المُزكِّي الصادق وإلا فَعُدّهُ من أهل الريبِ والتُهَمات، فهذا هو حدّ هذه الهجرة.

قبل ذلك قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (فاسمع الآن شأن هذه الهجرة والدَلالة عليها)، (فاسمع) هذا فيه نُصحٌ منه، وحث رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ علىٰ الانتباه لهذا الأمر (اسمع، اعلم، انتبه...) إلىٰ غير ذلك، يُراد بها استنهاض الهِمم، وطلب حسن الاستماع، حتىٰ يتحقق الانتفاع وتتحقق الفائدة، (اسمع الآن شأنَ هذه الهجرة والدلالة عليها وحاسِب نفسك)، الغرض من البيان الآتي لحقيقةِ الهجرة إلىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام مع ذكر الأدلة، أن يحاسب المرء نفسه في ضوء ما ساقه رَحِمَهُ اللَّهُ من أدلة الكتاب العزيز، مُبينا لمضامينها ومعانيها وهداياتها، (حاسب نفسك بينك وبين الله هل أنت من المهاجرين لها) أو الهاجرين لها (أو المهاجرين إليها؟)

لأن الناس ما بين مُهاجر وهاجِر، مهاجر إلىٰ السنة تعظيما واتباعا، وهاجر عن السنة صدودا وإعراضا، الناس بين هذين القسمين.

ففي ضوء الأدلة الآتية يحاسِب المرء نفسه: هل هو مهاجر أو هاجر؟ هل هو مهاجر إلىٰ السنة أو هاجر لها معرضٌ عنها؟ ومن الخير للمرء أن يحاسب نفسَه قبل أن يحاسبه الله، كما قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزِنوا أعمالكم قبل العرض علىٰ الله ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة].

ثم بيّن رحمة الله عليه أنّ حدّ هذه الهجرة: أنَّ المرءَ في كل مسألة من المسائل التي تعرِض له يبحث رأسا عن الهدي النبوي فيها، يطلب هَدْيَ النبي ﷺ، ما الذي صح عنه؟ ما الذي ثبت عنه صلواتُ اللهُ وسلامُهُ وبَرَكاتُهُ عليه؟ في كل نازلة وفي كلِّ حادثة؛ يكون بحثه عن الهَدْيِ الذي صدر عن النبي ﷺ، قولًا أو فعلًا أو تقريرًا، لأنّه عليهِ الصلاةُ والسلام (لا ينطقُ عنِ الهَوىٰ إن هُو إلا وحيٌ يوحىٰ).

ولْيَحْذَرْ أشدَّ الحذر من المسالك الكثيرة التي سلَكها الناس في طلبِ الهُدىٰ وهي إنما تبعدهم عنه، فإنّ الهدىٰ لا ينال إلا بالرجوع إلىٰ هَدْيِه عليه الصلاة والسلام، ولِزومِ غَرْزِه، والأخذِ من سنته صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

فما للمقيم في مدينةِ طَبْعِهِ وعَوائِده، القاطِنِ في دارِ مَرْباهُ ومولده، القائلِ: إنّا علىٰ طريقةِ آبائِنا سالكون، وإنا بحبلهم مستمسكون، وإنا علىٰ آثارهم مقتدون، وما لهذه الهجرة!؟ قد ألقىٰ كله عليهم، واستند في معرفة طريق نجاته وفلاحِهِ إليهم، معتذرا بأنّ رَأيهم له خيرٌ من رأيه لنفسه، وأنّ ظنونَهم وآراءَهم أوثقُ من ظنهِ وحَدْسِه.

إذا كان المرء مقيمٌ علىٰ طبعِهِ، مقيمٌ علىٰ عوائِدِهِ، مُقيم علىٰ مألوفاته ومعتاداته في حياته، إذا كان مقيمًا علىٰ العوائد، عوائد الآباء والأجداد، لا يحيدُ عنها حتىٰ لو استبانت له السنّة وظهرت له معالمُها، فمثلُ هذا ماله (وما لهذه الهجرة!) فإن هذه الهجرة لم تتحقق فيه، ولم يتحقق فيه أنه من أهلها، كيف تكون متحققة فيه والسنة تستبين له بمعالمها ودلائلها وبراهينها البينات الواضحات فيتركُها لا لشيء إلا أنها تخالف العوائد التي اعتادها، والأشياء التي ألفها، وما عليه الآباء والأجداد!؟ وهذه عُقدة نفسية قديمة في الزمان، صدّت كثير من الناس عن الحق ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف:٢٢] هذه عقدة نفسية قديمة في الزمان صدت كثير من الناس عن الحق، فكثير يتبين له الحق، وتظهر له معالمُه، وتستبين له السنة واضحة، فيتركُها لا لشيء إلا لأَنها تخالف ما عليه الآباء والأجداد، تخالف الأمور التي ألفها واعتادها منذ صغره ونعومةِ أظفارِه.

ولا ينفك من هذه العقدة إلا من نجّاه الله وسلّمه وعافاه، ورَزَقَهُ تعظيم سُنَّةِ النّبي عليه الصلاة والسلام، فتتحقق له هذه الهجرة العظيمة التي يتحدث عنها رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ.

فمن كان مُقيمًا علىٰ العوائد، علىٰ طرائق الآباء والأجداد، وتستبين له السُّنّة فلا يقبل عليها، ماله ولهذه الهجرة!؟ ليس من أهلها، ليس من أهل هذه الهجرة، وإنما يكون من أهل هذه الهجرة أنه كما قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا استبانت للمرء سنة النبي عليه الصلاة والسلام فإنه لا يدعُها لقول أحدٍ كائنا من كان.

ﮪﮪ ◊ ﮫﮫ

ولو فتّشتَ عن مصدرِ هذهِ الكلمةِ لوجدتها صادرةً عن الإخلادِ إلىٰ أرضِ البطالة، متولدةً بينَ بعلِ الكسلِ وزوجتِهِ المَلالَة.

نعم، يعني هذه الكلمة التي يَرُدُّ بها كثيرون الحق الثابت والسنّة الصحيحة عن النبي عليه الصلاة والسلام، يجد أنها صادرة عن الإخلاد إلىٰ الأرض، ومُتَوَلِّدَة بين الكسل والملالة، اجتمع فيمن كان كذلك الكسل والملالة، وإلا لو أنّهُ نَهَضَ بنفسه، ومضىٰ بعزيمته، وحرِصَ علىٰ الحق، وتتبعه في مظانّه، لوجد الهَدْيَ البَيِّن، والصراط الواضح المستقيم.

ﮪﮪ ◊ ﮫﮫ

والمقصودُ أنّ هذه الهجرة فرضٌ علىٰ كل مسلم، وهي مقتضىٰ شهادةِ أنّ محمدًا رسولُ الله ﷺ، كما أن

الهجرةَ الأولىٰ مقتضىٰ شهادةِ ألا إله إلا الله.

هذه الهجرة إلىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام بالاتباع، والائتساء، والاقتداء، والتقيد بهديه عليه الصلاة والسلام، هذه فريضة علىٰ كل مسلمٍ ومسلمة، والأعمال أيًّا كانت ومهما كثرت لن تكون مقبولةً من العاملين بها إلا إذا كانت وَفق الهدي، وإلا فهي مردودة غير مقبولة من صاحِبها «**من عَمِلَ عَملًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنا فَهُوَ رَدّ**» [صحيح مسلم]، أي: مردودٌ علىٰ صاحبه غير مقبول منه.

فهذه الهجرة فريضة، لأنَّ الأعمال لا تكون مقبولة مَرضية عند الله ﷻ إلا وَفْق هذه الهجرة، وَفق هذا الاتباع لهدي الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، (وهي مقتضىٰ شهادة أنّ محمدًا رسولُ الله ﷺ)، لأنَّ مقتضىٰ هذه الشهادة طاعتُه فيما أمر، وتصديقُه فيما أخبر، والانتهاء عما نهىٰ عنه وزجر، وألا يُعبد الله إلا بما شرع.

وقد قال الله سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء:٦٤] لأجل هذا أُرسلت الرُّسل، لأجل أن يُطاعوا، تُمتَثَل أَوامرُهم، تُصَدَّق أخبارهم، يُنتهىٰ عما نَهَوْا عَنْه، ولا يَتحقَّق الإيمان بِهِم إلا بتحقِيق ما تقتضيه الشهادة لهم بالرسالة، فشهادةُ أنّ محمدًا رسولُ الله ﷺ هي طاعَتُه فيما أمر، وتصديقُهُ فيما أخبر، والانتهاء عما نهىٰ عنه وزجر صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

(كما أن الهجرة الأولىٰ مقتضىٰ شهادة ألا إله الا الله)، الهجرة إلىٰ الله بالعبودية والإخلاص هي مقتضىٰ شهادة ألا إله الا الله، فهاتان الشهادتان فيهما نوعان من التوحيد:

الأولىٰ شهادةُ ألا إله إلا الله: فيها توحيدُ المُرسِل – الله جَلَّ وعلا – بالعبودية، وإخلاص الدين له ﷻ.

والثانية شهادة أنَّ محمدا رسول الله ﷺ: فيها توحيد المُرْسَل ﷺ بالاتباع، بتجريد المتابعة، والاهتداء بهديه الكريم عليه الصلاة والسلام.

وعن هاتين الهجرتين يُسألُ كلُّ عبدٍ يومَ القيامةِ وفي البرزخِ، ويُطالبُ بهما في الدنيا، فهو مُطالب بهما في الدور الثلاثة، دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار، قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: كلمتانِ يُسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟

يقول ابن القيم (عن هاتين الهجرتين) – أي الهجرة إلىٰ الله بالإخلاص والعبودية، وإلىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام بالاقتداء والمتابعة – (يُسأل كل عبد يوم القيامة)، كل عبد يوم القيامة يُسأل، قال الله جل وعلا في أواخرِ سورةِ القصص – وفي صلاة العشاء البارحة استمعنا إلىٰ هذه الآيات – قال جل وعلا: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٦٢﴾ [القصص] وبعدها بآيات قال: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ

أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ [القصص]، فالأول: سؤال عن لا إله إلا الله، والثاني: سؤال عن محمد رسول الله ﷺ:

الأول: سؤال عن (لا إله إلا الله)، وجواب ذلك: أن يخلص العبد دينه لله، وأن يفرد الله ﷻ بالعبادة.

والثاني: ماذا أجبتم المرسلين؟ بتجريد المتابعة للرسول الكريم، وحسن الاقتداء بهديه صلوات الله وسلامه عليه.

يُسأل العبد يوم القيامة كما في الآيتين المشار إليهما من سورة القصص، ويُسأل (في البرزخ) كما في الحديث: «**يأتيه ملكان ويجلسانه ويقولان: من ربك؟ ... ومن نبيك؟**» [صحيح أبي داود وغيره]، الأول سؤال عن لا إله إلا الله، والثاني سؤال عن محمد رسول الله ﷺ.

كما أنه مُطالب بهما (في الدنيا)، مُطالب بهما: أي بهاتين الهجرتين في الدنيا، بأن يكون مخلصا لله، مُتّبِعا للرسول الكريم صلواتُ الله وسلامه وبركاته عليه، (قال قتادة رحمه الله) تعالىٰ: (كلمتان يُسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟).

وهاتان الكلمتان هما مضمون الشهادتين، وقد قال تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء]، فأقسم سبحانه بأَجَلِّ مقسمٍ به، وهو نفسه عز وجل، علىٰ أنهم لا يَثْبُتُ لهم الإيمان ولا يكونوا من أهله حتىٰ يُحَكِّموا رسوله في جميعِ مواردِ النِّزاع، وهو كلُّ ما شَجَرَ بينهم من مسائلِ النِّزاعِ في جميعِ أبوابِ الدين، فإن لفظةَ ﴿ما﴾ من صِيَغِ العُموم، فإنها موصولةٌ تَقْتَضِي نَفْيَ الإيمانِ إذا لم يوجد تحكيمُهُ في جميعِ ما شجر بينهم.

ولم يقتصر علىٰ هذا حتىٰ ضمّ إليه انشراحَ صدورِهِم بِحُكْمِهِ، حيث ﴿لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا﴾ وهو الضِّيق والحَصَرُ من حكمه؛ بل يتلقّوا حُكمه بالانشراح ويقابلوه بالقَبول، لا أنّهم يأخذونه علىٰ إغماضٍ، ويشربونه علىٰ أقذاء، فإنّ هذا مُنافٍ للإيمان؛ بل لابدَّ أن يكون أخذه بقبولٍ ورِضىٰ وانشراحِ صَدْر.

بدأ ابن القيم رحمه الله تعالىٰ من هذا الموطن بِسَوقِ الأدلة من القرآن الكريم علىٰ هذه الهجرة، الهجرة إلىٰ الرَّسول عليه الصلاة والسلام بالاتباع، والتعظيم لسُنّتِهِ، والاهتداء بِهَدْيِهِ، وتَحكيمِهِ عليه الصلاة والسلام في كل حادِثة وفي كل نازلة وفي كلِّ أمر، وأن يكون المعَوَّل علىٰ ما جاء عنه وثبت عنه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، فبدأ بسَوْق الأدلة، وساق أدلة كثيرة ربما يحسُن بكم أن تُرَقِّموها من أجل أَنْ تُضْبَط فيما بعد دليلا دليلا، أنه ساق أدلة كثيرة هذا الأول منها، وهو قول الله ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، والطريقة التي سلكها: أنّه يذكر الدليل ثم يُبَيِّن ما يشتمل عليه من المعاني العظيمة والمضامين المهمَّة في هذا المطلب، الذي هو الهجرة إلىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام اتباعًا واقتداءً وائتساءً بهديه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

بدأ بهذه الآية وهي قولُ اللهِ جَلَّ وَعَلا: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾، وبيّن رَحْمَةُ الله عليه أنَّ هذا قَسَم من الله (بِأَجّل مقسم به وهو نفسه) جَلَّ وَعَلا، أَقْسَمَ بِنفسه جَلَّ وَعَلا (علىٰ أنهم لا يثبت لهم الإيمان، ولا يكونون من أهله حتىٰ يُحَكِّموا) الرسول، حتىٰ يكونوا محكِّمين له صلوات الله وسلامه وبركاته عليه (في جميع موارد النزاع) ومواطن الخلاف، وفي (كل ما شَجَرَ بينهم في جَميع أَبوابِ الدين)، أَخْذًا من قوله: ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾، هذا عام في كل مَسألة وكل أمر وقع فيه تَنازُع أو خِلاف، (فإنّ لفظة ﴿ما﴾ من صِيَغِ العُموم، فإنها موصولة تقتضي نفيَ الإيمان إذا لم يوجد تحكيمه جميع ما شجر بينهم)، وهذا يتطلب من المسلم أن يكون هكذا في كل المسائل، وفي جميع الأمور التي يكون فيها خِلاف، أَنْ يرد النزاع إلىٰ حُكم النبي عليه الصلاة والسلام، بحيث يكون هو عليه الصَّلاة والسلام المُحَكّم والذي لِهديه وقوله عليه الصلاة والسلام وما جاء عنه يكونُ لذلك الحُكم في كلِّ نازلة، حتىٰ يُحكموه عليه الصلاة والسلام فيما شجَر بينهم.

قال: (ولم يقتصِر علىٰ هذا، حتىٰ ضمَّ إليه انشراح) الصدر، قد يكون الإنسان يُحكّم ويجد في صدره عدم انشراح، أيضًا مطلوب من العبد أنْ يُقبل علىٰ السُّنة مُحَكِّمًا لها، منشرحًا صدرُه بذلك، لِما قام في صدره من التَّعظيم لهَدْي النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، (لا أنهم يأخذونه) – أي الحُكم الصادر عنه – (علىٰ إغماض، ويشربونه علىٰ أقذاء)، يعني علىٰ كراهية وعدم ارتياح، (فإنّ هذا منافٍ للإيمان؛ بل لا بد أن يكون أخذه بقَبولٍ ورضىٰ وانشراحِ صدرٍ).

ومتىٰ أرادَ العبد أَنْ يعلمَ منزلتَهُ من هذا، فلينظر في حاله، وليطالع قلبه عند ورود حُكْمِهِ علىٰ خِلاف هواه وغَرَضِه، أو علىٰ خِلاف ما قلّد فيه أَسْلافَه من المسائل الكِبار وما دونها ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ [القيامة].

فسبحانَ اللهِ كَمْ من حَزازةٍ في قلوبِ كثيرٍ من الناس من كثيرٍ من النصوص، وَبِوُدِّهِم أَنْ لَوْ لم ترد؟ وكم من حرارةٍ في أكبادهم منها؟ وكم من شجًىٰ في حُلوقِهم مِنْ مَوْرِدِها؟

سَتبدو لَهُم تِلْكَ السَّرائِرُ بالذي يَسوءُ وَيُخْزي يومَ تُبْلىٰ السَّرائِرُ

هذه الحزازة التي يشير إليها رَحِمَهُ اللَّهُ، والحرارة التي في القلوب تجاه السُّنة عندما يورَد الحديث عن النبي الكريم عليه الصّلاة والسلام، منشؤُها تعظيم العقول والآراء، وتعظيم أيضا الأذْواق التي تكونُ للمَرْءِ في بعض العبادات، التي يجد مثلًا لها في نفسه ذَوْقًا، تُقبِل عليها نفسُهُ ثم يأتيه حديثٌ يعارِض هذا الذوق الذي عنده، فإذا جاءت النُّصوص مخالفةً لهذه الأشياء تأتي هذهِ الحزازة، وكلما كانت هذه الأمورِ مُتَجَذِّرَة ومُتَعَمِّقَة في

القلوب تشتدُّ حزازة المرء، كل ما تلوَّثت القلوب بالأهواء وظُلمتِها اشتدَّت هذه الحزازة في القلوب.

وإن كان المرء مُعظِما للعقل مقدِّمًا له علىٰ النقل، إن جيء له بالأحاديث نفرت نفسه منها، أذكر الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «الصواعق»، ذكر مناظرةً دارت بينه وبين بعض المتكلِّمين، فأورد هو رَحِمَهُ اللَّهُ أو أحد الحاضِرين حديثًا في إثباتِ صفة من صفاتِ الله، والتي كانت المناظرة حولها، قال متحدِّثًا عن الخصم الذي أمامه قال: فأعرض بوجهه كأنَّما ذاقَ أخبثَ طعمٍ، أو شمَّ أنتنَ ريح! لما أورد له حديثا، حديث صريح في الباب، أعرض كأنَّما ذاق أخبث طعم أو شم أنتن ريح.

عندما تُظلم القلوب بالأهواء والآراء وظُلمات البِدع، إذا جيء بالحديث المخالف لما هو عليه تأتي هذه الحزازة، وكلّما كان التلوث بالأهواء أشد تقوىٰ هذه الحزازة في القلوب، ولهذا تجد من هؤلاء إذا عُرِضَت عليه أحاديث لا تخالف شيئًا من أهوائه يتقبلها بدون تردُّد، فإذا عُرِضَ عليه حديثٌ صحيحٌ يخالِف هواه وُجدت هذه الحزازة والحرارة في قلبه والنُّفرة.

مُرادُ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ أنَّ هذه الأُمور تكشف للمرء حقيقةِ حالِه، وتُوضح له هل هو فعلا من المهاجرين أو الهاجرين؟ هل هو من المُهاجرين إلىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام أو من الهاجِرين لسنته المعرضين عن هَدْيِه صلواتُ الله وسلامه وبركاته عليه؟

ثم لم يقتصر سبحانه علىٰ ذلك حتىٰ ضم إليه قوله: ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٦٥﴾، فذكر الفعلَ مؤكِّدًا له بمصدرِهِ القائِمِ مَقامَ ذِكْرِهِ مرّتين، وهو الخضوعُ لَهُ، والانقياد لما حكم به طوعًا ورِضىٰ، وتسليمًا لا قهرًا ومُصابرة، كما يُسَلِّمُ المقهورُ لمن قهره كُرها؛ بل تسليمُ عبدٍ مُحبٍ مُطيعٍ لِمَوْلاهُ وسيدِهِ الذي هو أحب شيءٍ إليه، يعلمُ أنّ سعادَتَه وفلاحَه في تسليمِهِ إليه، ويعلمُ بأنَّهُ أولىٰ به من نفسه، وأبرُّ بهِ مِنها، وأرحمُ بِهِ مِنها، وأنصَحُ له منها، وأعلمُ بِمَصالحه منها، وأقدرُ علىٰ تحصيلها.

مثل ما جاء في الآية الكريمة ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم...﴾ [التوبة:١٢٨] وفي الآية الكريمة الأخرىٰ ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ [الأحزاب:٦].

وسَيَأْتي فوائد عظيمة جدًّا ذكرها حول هذه الآية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، فالحاصل أنَّه إضافة إلىٰ ما سبق وهو أنّ التحكيم يكون للرسول عليه الصلاة والسلام ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾ ونفي الإيمان عمّن لم يكن كذلك، أضاف إلىٰ ذلك انشراح الصدر، (ثم لم يقتصر علىٰ ذلك سبحانه حتىٰ ضمّ إليه ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٦٥﴾) أي: يُذعنوا إذعانا وينقادوا انقيادًا، طوعًا ورِضًا لا قهرًا وكرهًا؛ بل يُسلموا تَسليمَ الرّاضي المُذْعِن المُنقاد المُمْتَثِل لأَمر وهدي الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام.

فمتىٰ عَلِمَ العبدُ هذا من الرسول ﷺ، استسلم له، وسَلّمَ إليه، وانقادت كُلُّ ذَرَّةٍ من قلبه إليه، ورأىٰ أنه لا سعادةَ له إلا بهذا التسليمِ والانقياد، وليس هذا مما يحصلُ معناه بالعبارة؛ بل هو أمرٌ قد انشقَّ له القلب واستقر في سويدائه، لا تفي العِبارة بمعناه، ولا مطمع في حصوله بالدعوىٰ والأماني

فكـــلٌّ يَـــدّعون وِصـــالَ لَيْلَـــىٰ ولكـــن لا تُقِـــرُّ لهـــم بِـــذاكا

نعم، يعني هذا الذي يذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليس فقط مجرد كلام أو مجرد دعوىٰ، فالأمر ليس بالدعاوىٰ وليس بالأماني، مثل ما في الآية الكريمة ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء:١٢٣] وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، فليست العبرة في هذا الباب بالدَّعاوىٰ ولا بالأماني، ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلّي، ولكنّ الايمان ما وَقَرَ في القلب وصدّقته الأعمال.

وفرقٌ بين علم الحب وحال الحب، فكثيرا ما يشتبه علىٰ العبد علم الشيء بحالِه ووجوده، وفرقٌ بين المريض العارف بالصحة والاعتدال وهو مثخنٌ بالمرض، وبين الصحيح السليم وإن لم يحسن وصف الصحة والعبارة عنها، وكذلك فرقٌ بين وصف الخوف والعلم به، وبين حاله ووجوده، وتأمل تأكيده سبحانه لهذا المعنىٰ المذكورِ في الآية بوجوه عديدة من التأكيد.

الآن لمّا قرر رحمةُ الله عليه هذا التقرير المتين والعبارات الواضحة، عاد مرة أخرىٰ - وهذا من متانة العلم وحُسن البيان وجمال النُّصح - عاد مرة أخرىٰ إلىٰ الآية ليزيدَ تقرير هذا الأمر وضوحا، وما اشتملت عليه من وجوه التأكيدات علىٰ هذا المطلب العظيم الذي هو تحكيم الرسول عليه الصلاة والسلام، فذكر تأكيداتٍ عديدة اشتملت عليها هذه الآية (وتأمل تأكيدَهُ سبحانَهُ لهذا المعنىٰ المذكور في الآية بوجوه عديدة من التأكيد) المعنىٰ المذكور الذي هو التحكيم، تحكيم الرسول فيما شجر صلوات الله وسلامُه عليه، أكّد الله هذا المعنىٰ بتأكيداتٍ عديدة.

أوّلُها: تصديره بلا النافية، وليست زائدةً كما يظنّ من يظنّ ذلك، وإنما دخولُها لسرٍّ في القسم، وهو الإيذان بتضمن المُقْسَم عليه للنفي، وهو قولُهُ تعالىٰ: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [لنساء:٦٥] وهذا منهجٌ معروف في كلام العرب، إذا أقسموا علىٰ نفي شيء صَدَّروا جُملةَ القسم بأداةِ نَفي، مثلَ هذه الآية، ومثل قول الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: لاها الله.

الهاء هنا مثل الواو في القسم، (لاها الله) يعني لا والله.

لا يَعْمِدُ إلىٰ أسَدٍ من أُسْدِ اللهِ يقاتلُ عن اللهِ ورسولِهِ فيُعطيكَ سَلَبَه.

المقصود بالأَسَد من أُسد الله في هذا الحديث أبي قتادة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لأنّ هذا له قصة، هذا القسم له قصة، ولمّا أقسم أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا القسم بين يدي الرسول عليه الصلاة والسلام صدَّقَ، قال: «**صدق**» [صحيح البخاري ومسلم]، لأنَّ أبا قتادة في غزوة حُنين أتىٰ إلىٰ أحد المشركين من ورائِهِ وضربَهُ بالسيف، فالتفتَ إليه هذا المشرك وقد بقي فيه شيء من الرَّمَق، فضمّ أبا قتادة حتىٰ -يقول- شارَفْتُ من ضمَّتِهِ علىٰ الموت، يعني شدَّهُ، يقول: حتىٰ أرخاهُ الموت، فانفلتُّ منه وإلا يقول شارفت علىٰ الموت من ذلك، ثم بعد ذلك طَلَبَ مَنْ يشهد له أنَّ سَلَبَهُ له، لأن النّبي ﷺ قال: «**مَنْ قَتَلَ قَتيلًا [لهُ عليهِ بيّنة] فَلَهُ سَلَبَهُ**» [صحيح البخاري ومسلم] أعاد ذلك، ثم قال رجل: أشهد أنَّه قتله، وَسَلَبُهُ عندي فَأَرْضِهِ يا رسولَ الله، أَرْضِهِ يعني أرضي أبا قتادة بحيث يبقي السلب لي، أرضه يا رسول الله، فقال حينئذٍ أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (لاها الله) يعني لا والله، (لا يَعْمَد إلىٰ أسَد من أُسْدِ الله يقاتل عن الله ورسوله فَيُعطيك سَلَبُه)، السَلَب له؛ لأبي قتادة، قال النبي ﷺ: «**صدق**» وأمره أن يعطي أبا قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ السَّلَب.

الشاهد من إيراد كلمة أبي بكر أنه لما أقسم بالله جاء بلا النافية في أول القسم، وهي مُشعرة إلىٰ أنَّ المُقسم عليه نفي، وهو قوله: (لا يعمِد إلىٰ أسد من أسد الله).

وأورد أبياتا من الشعر فيها نفس المعنىٰ.

وقال الشاعر:

فـــلا وأبيـــكِ ابنـــة العـــامريِّ لا يـــدّعي القـــومُ أنِّـــي أَفِـــرّ

وقال الآخر:

فـــلا والله لا يُلْفـــىٰ لِمـــا بـــي ولا لِلَـــــــديهم أبـــــــدًا دواءُ

(فلا والله لا يُلفىٰ لما بي)، أي: من الكَدَر، (ولا لِلَديهم أبدًا دواءُ)، (للديهم) أي الحسدَ الذي فيهم ليس له دواء، لا للكدرَ الذي بي ولا للحسد الذي بهم دواء، وقولُه: (ولا للديهم) في رواية لهذا البيت (ولا لِما بهم)، ويقصِد لديهم أو بهم يقصد الحسد الذي عند هؤلاء، يقول ليس عند الحسد الذي عند هؤلاء دواء، ولا أيضا الكدر الذي عندي.

وهذا في كلامِهِم أكثر من أن يُذكر.

الشاهد من البيت أنه لمّا كان في المُقسَم عليه نفي، صدّر القسم بلا النافية.

وقال: (وهذا في كلامهم أكثر من أن يُذكر).

وتأمّل جُملَ القسم التي في القرآن المُصَدّرةِ بحرف النفي، كيف تجدُ المقسم عليه منفيًا ومُتَضَمِّنًا لنفي، ولا يَخْرُمُ هذا قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧﴾ [الواقعة]، فإنّه لمّا كان المقصود بهذا القسم نَفْيُ ما قاله الكفار في القرآن: من أنه شِعرٌ أو كهانةٌ أو أساطيرُ الأولين، كيف صدّر القسمَ بأداةِ النفي، ثمَّ أثبتَ له خِلاف ما قالوه، فتضمنت الآيةُ معنىٰ: ليس الأمرُ كما يزعمون، ولكنّه قرآن كريم.

يعني تضمنت الآية معنىٰ نفي وإن كان ليس فيها تصريحٌ بنفي، لكنَّ فيها معنىٰ النفي، نعم، (ليس الأمر كما يزعمون) من أنه قول كاهن أو قول شاعر أو أساطير الأولين، ليس كما يزعمون، بل هو (قرآن كريم) مُنَزّل من رب العالمين ﷻ.

ولهذا صرّح بالأمرين النفي والإثبات في مثلِ قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩﴾ [التكوير]، وكذلك قولِه: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾ [القيامة].

والمقصودُ أنَّ افتتاحَ هذا القَسمِ بأداةِ النّفي يقتضي تقويةَ المُقسمِ عليه وتأكيدَه وشدةِ انتفائه.

وثانيها: تأكيدُه بنفس القسم.

يعني ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ [النساء:٦٥]: تأكيد بالقسم، الأول: بلا النافية، والثاني: بالقسم.

وثالثها: تأكيده بالمُقسم به، وهو إقسامه بنفسه لا بشيء من مخلوقاته، وهو سبحانه يقسم بنفسه تارةً وبمخلوقاته تارة.

ورابعها: تأكيدُه بانتفاءِ الحرجِ ووجودِ التسليم.

وخامسُها: تأكيد الفعل بالمصدر.

أي: تسليما؛ ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ۝٦٥﴾.

وما هذا التأكيدُ والاعتناءُ إلا لشدةِ الحاجةِ إلىٰ هذا الأمرِ العظيم، وأنه مما يُعتنى به، ويُقَرَّرُ في نفوسِ العباد بما هو من أبلغِ أنواعِ التقرير.

نعم انتهىٰ الآن كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ علىٰ الدليل الأول، وهو قول الله تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ۝٦٥﴾.

ثم ذكر الدليل الثاني علىٰ هذا المطلب، وهو قولُ الله ﷻ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ [الأحزاب:٦] ونكتفي بهذا.

نسأل الله الكريم أن ينفعنا أجمعين بما علَّمنا، وأن يزيدنا علما وتوفيقا، وأن يصلح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين، اللَّهُمَّ اغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات، اللَّهُمَّ اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا، اللَّهُمَّ متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا علىٰ من ظلمنا، وانصرنا علىٰ من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمُنا.

سبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

اللَّهُمَّ صل وسلم علىٰ عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.